الرؤية الشعرية فى «نخلة القلب»
ديـــوان للشاعـــر علـــى الشرقـاوى

يمثل ديوان «نخلة القلب» للشـاعر البحرينى على الشرقاوى ملمحا واضحا للشـعر العربى الحديـث فى أدب الخليـج العربى حيث تعبر قصائده عن رؤية شـعرية تنتمى إلى آفاق السـبعينيات كما تنتمى إلى التطـور الذى لحـق القصيدة العربية بعد جيلين من شـعراء المدرسـة الحديثـة وأبـرز ما يمثل هذه الرؤيـة التركيز على البعـد الداخلى فى التجربة الشـعرية، حيث نرى الشـاعر يبتعد عن الحديث عن القضايا الكبرى وعن النبـرة الجهيرة وعن الموضوع القومى أو الاجتماعى ليركز علـى هـذا العالم المتدفـق حيث تمتـزج الذكريات العميقـة بالطبيعة بالإشـارات الثقافية ويخفت الحدث داخـل القصيدة فلا نلحظ إلا هذا التداعـى الخلاب لصور تجمع بين ما هو حسـى مفرط الحسـية وبين ما هو معنوى أو ميتافيزيقى. إن القصيدة الحديثة تتحول إلى عناقيد من الصور المجنحة ولكنها تكشف فى الوقت نفسه عن جانب من هذا العالم المتوتر المفعم بالمعاناة والقلق والاستشـراف للمسـتقبل. ومن هنا تبتعد القصيدة عن مفهوم التجربة كما عرفها شـعراء الخمسينيات والستينيات بمعنـى أن مفهوم التجربة لدى الأجيال السـابقة كان أقرب إلى مفهوم الأغراض الشـعرية فى القصيدة الكلاسيكية، وكأن الشاعر الحديث إنما يواصل رسـالة الشـاعر القديم بأسـلوب معاصر. بالطبع هناك اختلاف

جذرى بين الرؤية الشـعرية الحديثة والرؤية الشعرية التقليدية. الشاعر الحديث كان ينظر إلى نفسـه خلال عقدى الخمسـينيات والستينيات باعتباره صاحب رسالة وأنه مسئول عن التعبير عن الوجدان القومى فى شعره وهذا ما جعل شعره أقرب إلى القراء بل وجعل قاعدته الجماهيرية تزداد اتساعا وارتباطا به. أما الملمح الثانى فى الرؤية الشعرية فى ديوان «نخلة القلب» للشـاعر على الشرقاوى، فهو النزوع العميق نحو الذاتية وهو أيضا نزوع يعبر عن اتجاه أساسى فى شعر السبعينيات حيث غلبت الفردية على الجماعية وحاول الشـاعر أن يعبر عن حالة شـبه وجودية تأكدت فى هذا الشعر الذى يجعل من القطيعة وسيلة للتواصل مع العالم وهـى مفارقـة تبدو غير مقبولة وكثير من الشـعراء أفضـى بهم نزوعهم إلى الذاتيـة والتركيز على الرؤية الداخلية إلى نوع من الغموض المطلق لأن الهواجس الفردية كانت تبحث عن شـكل ملائم لم يلبث أن اتخذ شـكل التداعى الحر مما جعل معظم هؤلاء الشعراء أقرب إلى المنعطف السريالى فى الشعر العربى. ولكن على الشرقاوى يبدو من هؤلاء الشعراء القلائـل الذين نجحوا فى الوصول إلى بنية شـعرية تختلف عن البنية الشعرية السابقة، وفى الوقت نفسه تجنبت هذه السريالية التى أطاحت بنفوذ الشاعر لدى قرائه ومن الطبيعى أن يكون الحب هو محور تجربته الشـعرية وهو يترك وحيه حرا من الالتزامات القديمة الكلاسـيكية. إن ذاتيتـه تصب وحدها فى هذه الرؤية التى تعبر عن وعى دفين بالعناصر الشعرية الجديدة وهو وعى يؤكد أن شاعرنا يحاول الإبقاء على التواصل الخلاق مع العالم، ولهذا فالديوان يقيم جسـرا نحيلا من الأحلام التى

تستشـــرف غدا أفضل وأجمل. وإذا كان شـــعراء السبعينيات لا يهتمون بالبنـــاء المحكم الذى يتهاوى أمام التداعى الحـــر للصور فإن مهاراتهم الحقيقيـــة تتجلى فى هـــذه الصور التى تعتمد عليهـــا القصيدة الحديثة فى التأثير. ولهذا فإن على الشـــرقاوى صانـــع ماهر حيث يصوغ صوره الشعرية من صميم الإحساس العميق بالطبيعة دون أن يهتم كثيرا بتنمية الحدث الشعرى داخل القصيدة يقول فى قصيدته «مطر»:

ربما أنت لا تذكرين
ربما تذكرين
حين سرنا معا فى صدى الليل
كان المطر
أزرقا مثل طعم المساء
هابطا
فى دمى وفؤداى الشجر
قلتِ: أين ستأخذنى
قلتُ: نترك أقدامنا
لجموح المشاعر تصهل فوق البراكين
حلو رفيقة روحى الطريق الذى
لا يقود سوى للهوى
مشينا.
أصابعك فى يدى
مثلما النار. كان المطر
يتساقط دفئا على خصلات الطريق الصديق

يدثرنا
مثل أطفاله الخارجين إلى البرد
صادفت وحدى حريقا
وأنت يدى
يرتدينا المطر
ويكوكبنا فى الغيوم نجوما ترى حلمها فى النهر

إن الصـور البديعة فى هذه القصيدة توحى بأن الشـاعر لا يريد أن يقـدم لنـا تجربة بل «حالة شـعرية» يلعب فيها المطـر دور المعادل المفسـر لإحساسـه بهذا الحب الـذى يبدو كأنه بلا هـدف، وتركيز الشـاعر على عناصر التفسـير – المطر – الحريق – الشـجر – صدى الليل يؤكد أنه لا يسـعى إلى تجسـيد التجربة بل يسـعى إلى تأكيد لون من الرومانسية الجديدة يعتمد على مجرد البوح تماما كالرومانسية القديمة ولكن الخلاف إنما هو النسـج الشـعرى للصور التى اتسـعت فيها الاسـتعارة لتشـمل القصيدة كلها. فهل نحن أمام نوع جديد من الرومانسية؟ لا أتعجل الحكم وإن كنت أعتقد أن الأدب العربى والشعر فى المقدمة لم يتخلص من المرحلة الرومانسية إلا فى جوانب محدودة وقصيـدة «صـورة الغيم»، هى نـوع جديد من القصيـدة – الحلم – أو القصيـدة التداعى أو القصيدة – الحالة وليسـت القصيدة التجربة لأن البنـاء ينتفى. لم نعد فى عصـر الدراما بل مرة أخرى عبرنا إلى عصر الغناء ولكنه غناء مختلف غناء جريح وغير بعيد عن الدرامية فى الوقت نفسه يقول على الشرقاوى:

فى المساء
حيث لا شىء بين الزوايا
وحيث تقوم المرايا الصبية
نصحو
نفسر ما ليس يأتى
وندخل فى قاعة الوقت
نكسر بالضحكات الندية صمت الجليد
نخاصر آيار بين شرار النشيد
فى المساء
حين يغفو الرفاق
وتسكن أحلامهم حلمة النوم
أو صحوة الغيم
هذا الرحيل
الطويل المراق
أظل وحيدا
أسافر فى لون جرحى الشقى
أغامر كالطير فى الزبد النقى
وأخرج من رئتى
أتنفس بدء الزمان

وتلعب الطبيعة دورا أساسيا فى ديوان «نخلة القلب» وحتى استعارة النخلة للقلب يبدو مثيرا لأن العلاقة بينهما غير واضحة إلا إذا رأى فى النخلة ثباتا وسموقا وإثمارا يريد أن يمنحها للقلب أو للحب وليست

النخلة إلا مدخلا لعالم يفيض بكثافة نابضة بالألوان والأصوات والحركة يقول فى قصيدة «حضور» :

تجيئين من آخر الليل فى شكل عصفورة
يصطفيها الصباح
تحط على كتفى
فاخضر كالبرق بين الرياح
وتحمر كالوعد قبل النضوج
تفاتحنى بالخروج من الهم
للحلم تفتح جوع الحوار
فيأتى من الظلمات الوسيعة ضحك المنار

إن هذا الديوان شهادة واضحة على شاعرية مرهفة قادرة على صياغة صوتها الشعرى المتميز وهو أيضا يكشف عن جانب من الرؤية الشعرية التـــى تحاول أن تعبـــر فى أصالة عن مواجع جيل جديد يحلم بالتجاوز فى إطار من التميز الأصيل..

❑❑❑